بين العلم والأدب

أول رقيّ يتوق إليه الإنسان الحق، فوق الرقيّ المادي، هو الرقيّ العقلي. ذلك أن العقل نور للإنسان، ولذلك وجب ان يتقدّم نبراسه أمام المرء، ليتمكّن من السير في سبيل الرقيّ الحقيقي وما دام العقل – بما فيه من العلم – نوراً، فمن شأنه أن يرشد صاحبه إلى مصيره، والغاية المتوخاة من حياته، ويعبّد أمامه الطريق المؤديّة إلى غيره من التقدّمات. فإذا كان الأمر كذلك، نقول: في معزل عن التقدّم الأدبي، ليس من تقدّم حقيقي في العلم.

التقدّم العقلي هو السير في سبيل الحق، والتقدّم الأدبي هو السير في سبيل الخير. والحال ان مَن أراد أن يقطع شوطاً شاسعاً في طريق الحق، تحتّم عليه أن يبلغ حدّاً قصيّاً في جادة الخير. ومن شأن العقل ان لا يتّحد بالحق اتحاداً متيناً إلا إذا كانت الإرادة متصلة بالخير اتصالاً محكماً. وكلما ازداد في النفس البشرية تسلّط الضلال والشر، تضاءل نور الحق وتلاشت قوى الخير. ومتى زالت الاستقامة من الأعمال، بدت الإصابة في أحكام العقل. وعليه، في وسعنا ان نقول نظرياً، بلا مغالاة، إن الإنسان لا يستطيع أن يكون عالماً حقيقياً، إن لم يكن فاضلاً تقياً.

ومردّ ذلك إلى ان العلم الكامل قائم على أركان معرفة الحق ومحبة الخير، ومهما كان نبوغ المرء فائقاً عجيباً. فإن لم يكن هو في شيء من الصلاح، فلا قدرة له أن يصبح رجل حق.

نطلق القول نظرياً لأننا لا ندّعي ان الرجل الخالي من الفضيل، عاجز عن إدراك أي شيء، فقد يُمكن، بلا فضيلة، التعلّم واكتساب شيء من الحقائق. لكن، ما هذه الحقائق؟ هي حقائق مادية، مشتّتة، لا رابط يربطها. اما الحقيقة الثابتة المطلقة، الصادرة عن ربّ الحق، ومصدر كل حق، فهو عطل منها، وقصيّ عن الوقوف عليها؟ أجل، إننا نشاهد في العلم – قل العلم المعرّى من كل فضيلة – رقيّاً ملموساً.

لكن، ما هذا التقدّم العلمي في معزل عن التقدّم في الأخلاق المحمودة، وما عمله؟ عمله عمل العلم المتجسّمة فيه روح الشر، فلا ينشئ إلا ما تنشئ هذه الروح. ذلك أن إبليس شرير ومطبوع على الشر، ويا لشرّه هذا! فالعلم أو النور الطبيعي فيه يضحي قوة لإصدار الظلام. وهذا مثال مطابق كل المطابقة لرقيّ العلم في وسط إنحطاط الأخلاق، لأن صانع الشر يبغض النور، ولا لذة له إلا في إخفاء الحق تحت ظلمات الضلال المدلهمة. وما يقال في ذا الشأن في الأفراد يُطلق على الجماعات.

فإذا كان الأمر كذلك، ماذا يكون مصير العلوم؟ إن هذه العلوم تحيد عن سبيل الصواب. وتبتعد عن غايتها. فعوض أن تكون محجة هداية، تصبح بيداء غواية. الفلسفة، علم الحق، تستخدم وسيلة ممكنة للشك والإنكار، درس الطبيعة قد يمحو درس النفس، معرفة العالم قد تحجب معرفة الخالق، علم الماديات قد يُخفّف علم الروحيات، التاريخ عينه، سجل الحق ومقرّره، قد يمسي آلة للكذب.

نرى أبحاثاً سائرة في سبيل الضلال. لذا، العياذ بالله من علماء خالين من الفضيلة، ومفكّرين عادمي الذمّة، لأن الشرير الجاهل لا يكون إلا شريراً. أما الشرير العالم فهو ضربة، بل نقمة على البشرية، وهو عدو الحق، بل هو قوة شديدة لنشر الضلال.

د. جهاد نعمان